# وإذا شُـــرّحت الجثـــة الـــتـــي فيّ.. أقـــوم حـــيّـــاً؟

إيما الحركة

(الى جهاد...)

هناك خواطر، صور، أفلام لا تلائمنا. أبداً!

أقصد لا تلائم سلامنا الكاذب مع الوجود الذي لا يخفى سرابه على الواعين. لا تلائم انحدار قيمنا اقتناعاً بالموجود خوفاً من المجهول، واستكانتنا إلى نشرات أخبار تنقل إلينا أخبار موتنا لحظة بلحظة، قمة بقمة!

ذلك الفيلم الذي عرض في مسرح المدينة مساء ذلك الأحد مثلاً ..«مَقاتل».. فيلم داكن قاتم حاشد بشهوة الدم والموت. موت الضحايا والجلادين على حد سواء مع احتمالات شاحبة بالقيامة. فيلم يتشبث بأحمال ثقيلة كالذاكرة: ذاكرتي التي اكتشفت أنه وعوضاً عن أن أقوم بحفظها، كانت هي من تحفظني كعلب سردين مقدد كل تلك السنين. وذاكرتهم التي تعفنت في عتمة ذواتهم قبل أن يواجهوا الكاميرا وينقيأوا رواياتهم عما ارتكبوه بين ١٦ و١٨ أيلول ١٩٨٢.

«وصعد الشعب الى المدينة وقتلوا كل ما في المدينة من رجل وامرأة، من طفل وشيخ. حتى البقر والغنم والحمير بحدّ السيف»! (سفر يشوع ـ الاصحاح السادس)

دخلوا إلى بيوت المخيم بيتاً بيتاً وذبحوا كل من فيها «الكبير والصغير والمقمّط بالسرير حتى القطط والجرذان»، هكذا قال أحدهم. ذبحوا عمي وزوجته وأولاده الثلاثة وأختي الصغيرة، نعم ذبحوا أختي الصغيرة. استبشرت سابقاً أن موتهم قد يكون علامة على قيامة أخرى... ولكن!

أسمع اعترافات ٦ رجال شاركوا في تلك المجزرة مذهولاً، ومن دون أن تقوى حرارة نظراتها على ترويض ذهولي. ترى كيف ارتكبوا كل تلك الفظائع وبقوا على قيد الحياة، كيف؟ أو لعلهم جثث محنطة تتنفس تتناسل، تُعلف، وتُساق لأكثر؟

حتى هذه اللحظة لا تزال صور الضحايا عالقة برأسي، بينما يروي أحد الجزارين عن صورة حصان مذبوح أثارت ألمه وتعاطفه يوم المجزرة. أسمع شيئاً يهدر في دمي من دون أن أتمكن من السيطرة عليه تماماً. من ينقذني من حمّى الرعب والذكريات اللعينة؟! أختلس النظر إلى وجهها. في عينيها مقدار من الحزن يجعلك تقتنع به وتحبه. تلتفت إليّ ( هكذا فجأة) كأنها حزرت أنني أكاد أواري التراب على ملكوت المحبة. أنا وريث هذا المخيم وهؤلاء الناس الذين شُرّدوا ونُحروا على مرأى ومسمع الجميع، ثم أُنكروا في الضمائر النتنة العروق تحت حجج واهية كالسلام العادل والشامل و«عفا الله عن ما مضى»... هل يكفي الندم كي تنتصر محبتنا على خوفنا وعلى بغضهم، في حين أن الخطاب هو ذاته والعمالة أصبحت متغلغلة في نسيج القتلة فكراً وممارسة؟!

ثم كيف يُعقل أن يتساوى مجرمو الحرب ( من كل الأطراف)، جزارو المخيمات والقرى، مفخخو السيارات، بالأبطال؟ ماذا سأقول لكل أولئك الشهداء، بماذا سأجيب «غوى» أختي المذبوحة إذا ما زارني طيفها لتسألني أسئلتها التي كانت تشغل بالي أثناء الطفولة، ولا تزال..

● من فيلم manocssre, مونيكا بورغمان، لقمان سليم وهيرمان تايسن

أخجل كثيراً من عمق كراهيتي. أبشع أنواع الكراهية لهذا اللفيف البشري الضبابي الذي يطالب بالعفو من دون حساب وإعادة تأهيل، ويختلط عنده مفهوم البطولة بمفهوم العمالة والقرصنة.

أخجل كثيراً من وقاحتي التي أستغلها دفاعاً عن النفس في مواجهة إثم يصرون على تحميلي وزره، لأخطاء وخطايا ارتكبها مسؤولون فلسطينيون فاسدون تقمّص نضالهم معاهدات سلام وفيلات وأرصدة سرية في البنوك!

أخجل أكثر من استسلامي لتفاؤل أرعن أو تشاؤم أبله يقود إلى اليأس من تعب ومن عرب لا يقوون على النوم الا في أسرّة الأوهام وقوميات الخرافة: العنصر، اللغة، الدين!

«واذا شربت كل قطرات المطر.. أصير غيمة»

إنني أحتضر في السكون. لا أحد يجيب. ألا يسمعون صوت غوى في رأسي؟ أجترّ الأفكار التي تعذبني من دون أن يثور عصب في البركان، ربما لأنني أريد لنفسي خلاصاً فردياً. يعيبني التجهم من خارج ومن داخل فأقرر الانصراف قبل أن ينطلق مستر هايد من عقاله. تلاحقني نظراتها باستغراب، وبشيء من الندم أو التأنيب. أعلم انها ستكمل الفيلم بوجودي أو من دونه، لكن شراسة مشاعري تخيفني. كنت أجهل أنني أختزن بداخلي ذلك الكمّ الهائل من الرعب والكراهية الذي يحزّ في داخلي من دون أن يدميه!

ألتقي بواحد من المتحذلقين الفكريين في الخارج. كان يدخن سيجارة ويستأنس بإلقاء محاضرة عن مفاهيم عرجاء كالسلم الأهلي والسلام العادل والشامل والوحدة الطائفية والحقيقة... الحقيقة؟ كم أصبحت هذه الكلمة متداولة في الآونة الأخيرة من قبل الكثيرين الذين يتدثرون بها لإخفاء عراء نواياهم. فالحقيقة تعريهم قبل غيرهم لأنها الوجود ومعرفته. هي كلّ لا يقبل الإشراك والتقليص ليناسب حجم أحداث سياسية أو فردية راهنة!

«وماذا لو سرق جسدي كل أسرار النار.. أصير ناراً؟!»..

على الرغم من أسئلة غوى التي تربض كحجر ثقيل على قلبي لكنني أكاد أنفجر ضاحكاً، فلبنان بلد الإزدواج وحتى التثليث اللفظي والفكري. أدخن سيجارة برفقة ذلك الشاب وأسأله قبل أن أنصرف:

«واذا شرّحت الجثة التي فيي واكتشفت سبب الوفاة... أقوم حياً؟!»..